

التحالف مع العدو ضد الخصم.. هل العرب أغبياء بالفطرة؟

كمال خلف

يسألني أحد الأصدقاء باستمرار مازحا هل التخلف موجود داخل الإنسان العربي بالجينات أم مكتسب؟، هو سؤال لا ريب يعكس حجم اليأس المعيش في نفوس الشعوب العربية، إذ لم يكن التردي بالوضع العربي بهذا الشكل في أكثر عصورهم حلكة، الإنسان العربي يفتقد اليوم للاستقرار والحياة الكريمة، يحس بمرارة صعوبة العيش وانعدام المستقبل، والم فقدان الكرامة الوطنية المكانة بين الأمم.

هو معرض كل يوم للسقوط في حبائل التحرير ودعوات الانتقام والاقتتال الطائفي أو العرقي أو المناطقي، انهار أمامه كل شيء دفعه واحدة، خاص في دمه الإرهاب، وتسلط عليه الاستبداد، وإعلن أعداؤه الانتصار عليه، تدنى الخطاب الإيماني الذي شكل لقرون منظومة القيم لديه، وصل الانحطاط إلى مستوى التحرير على القتل والسلح والسب والجلد باسم الدين والثورة ، وتلوث العقيدة بالفتاوي الهاشمية، من اباحة معاشرة الزوجة بعد الموت، صعودا إلى فتوى قتل الموظفين المدنيين لأنهم يخدمون السلطة وصولا لفتوى اباحة تدخل حلف الناتو لتدمير بلد عربي و القاموس مليء بكافة انواع الجهل والعنف الفكري.

إنها المأساة العربية بماها وابيه.

لو كان الإنسان العربي عبيط بالجينات، لما كان استطاع عربي من عمق المصراء أن ينشر دينا سماويا حمل منظومة قيم وعقائد ومبادئ، إلى اصقاع الأرض وتعيش هذه الرسالة المحمدية أكثر من 1500 سنة وحتى اليوم، رغم محاولات تشويتها كما ذكرنا آنفا. وهل كان "يسوع المسيح" قبل النبي محمد لا عربيا من فلسطين المحتلة، حمل رسالته إلى كل العالم وبشر الإنسان بالسلام والحضارة.

الإنسان العربي ليس غبيا، لكن واقعا تاريخيا و معاصرأ ثقليا أرخي بطلاله على مصيره، كتبه الأقوباء بعد حربين عالميتين، جعله لا يقوى على أخذ زمام مصيره بيده، وإلى هذا اليوم لم تتمكن الشعوب العربية من إنتاج أنظمة حكمها بصورة نابعة من صلب الشعوب وكفاءاتها ونخبها . وركبت فوق ظهره أنظمة استبداد، وشخصيات كرتونية، طالمة ومتسلطة وحديدية تجاهه و دمى ورقية بيد القوى الكبرى، هؤلاء هم الأغبياء وليس الشعوب، هم ليسوا من كفاءات الشعب أو نخبته، ولا يمثلون سواده الأعظم، إنما رجال

يتصرفون بالسذاجة والسطحية. لديهم حساسية مفرطة من رجال الفكر والعلم من أبناء جلدتهم، فا بعدهم أو سجنوهم أو قتلواهم، واستبدلواهم برجال الطبل والزمر والتصفيق والتهليل، ليزيروا لهم خطاياهم.

لهذا صار واقعنا العربي حالك الظلمه، ومستقبلنا ومصيرنا أكثر طلعة ووحشة من هذا الحاضر.

كنا بالأمس نتابع بعض النظام الرسمي العربي ورجالاته يزحفون إلى بولندا، لعقد اجتماع مع نتنياهو والأمريكيين، لبحث سبل مواجهة إيران. كيف يمكن لقادة أوطان الذهاب إلى تحالف مع عدو لهم لمقاتلة خصم أو جار منافس أو يختلفون معه؟ كيف نلجم كعرب إلى دولة طارئه احتلت أجزاء من أرضنا ومقدساتنا، وقتلت أبناءنا مدة نصف قرن وما زالت، لنهاجم دولة عمرها 5000 ألف عام و تشارك معنا بالإسلام والحضارة والتاريخ والجغرافيا؟

هل شرط مواجهة إيران هو الصدقة بالضرورة مع إسرائيل؟ لماذا لا يملك العرب مشروعًا عربياً خالصاً، يواجه إيران وغير إيران؟، لماذا لم تقوموا بعكس المشهد؟ طالما التحالف مع عدو ضد عدو آخر مبرر، لتحالفوا مع إيران ضد إسرائيل ؟ لكنكم لا تملكون الخيار. لأن قراركم ليس بيديكم، انتم بيادق ودمى غير متحركة إلا بالكتنرول الأمريكي.

انتم أحرار في أن تكونوا أغبياء ودمى، لكن نحن الشعوب العربية لسنا كذلك. وإن كانت هذه الشعوب لا حول لها، لأنها رهينة القمع والتجويع والفتوى والتهديد بالنفي وبالتمزق والسجون والإعلام المأجور، لكن ضميرها سيبقى حياً ووجودها لم تدل منه آلة الإعلام المضللة والنخب الراقصة على أنغام التطبيع والتحالف مع إسرائيل. هي شعوب صامتة مغلوبة على أمرها، ولكن إلى حين ولابد أن يفك قيدها في لحظة تاريخية.

مائة عام مرت منذ أن صنح عليكم الانكليز، لتشاركوا في تحطيم الدولة العثمانية، بحجة قيام المملكة العربية الحرة، ومن ثم أذاقونا بسبب سذاجة أجدادكم ويل الاحتلال والتجزئة والنهب والذل وسرقة فلسطين ومقدساتها. كل شيء أخذوه منا إلا شيء واحد هو مواصفات الحاكم العربي تركوها لنا مائة عام... واليوم تعبدون الكره. فهل سنخسر سوريا ولبنان أيضًا، ونناضل مائة عام أخرى للحفاظ على حدود "سايكس - بيكون" كي لا يتجزأ المجزء إلى دولات طائفية وعرقية متناحرة تلجم إلى إسرائيل للاسقواء على بعضها. ربما لا تكون إيران هي الأولوية من حفلة "وارسو" بالنسبة للأمريكيين والإسرائيليين، إنما هي البعير الذي جلبوا به قادة العرب إلى فخ التحالف مع إسرائيل مجاناً، لمحاصرة الفلسطينيين وعزلهم، وجعل القضية المركزية للعرب يتيمة. والبدء بعصر جديد تتغير فيه هوية الصراع ومفهوم العدو، وثقافة ووجود شعوب المنطقة. وهنا تغدو العلاقات و التطبيع وتبادل السفارات ليست هي الكارثة، إنما المسار الجديد للسياسية العربية، في اعتبارها الحرب على إيران أولوية و ليست حقوق الشعب الفلسطيني ومقدسات كافة العرب والمسلمين، واعتبار العدوان الإسرائيلي على سوريا وغزة دفاعاً عن النفس، كما سربت إسرائيل موقف لأحد هؤلاء. واعتبار المقاومة الفلسطينية واللبنانية ارهاباً، كما ورد في ذات التسريبات.

المرادنة على وطنية وضمير وذكاء الشعوب العربية، وعلى بقية باقية من قوى حية في هذه الأمة، ستواجهه هذا المشروع وتسقطه، لابد قبل كل شيء إعادة التوازن للحالة العربية، وإعادة مركز القرار العربي إلى مكانه الطبيعي والتاريخي. وهذا يتطلب أن تنهض من جديد الدول الأساسية والمحورية في الصراع مع إسرائيل، وأن تبني نفسها على أساس صحيحة وان تعطي لشعبها الأصيل فرصة المشاركة في البناء، وأن تستعيد نخبها ومفكريها وكفاءاتها التائهة، إنها مهمة صعبة لكنها مقدسة، وقدرنا أن نواجه.

كاتب واعلامي فلسطيني